

الدكتور شيخ امحمدمحاضرةمالك بن نبي

وُلد مالك بن نبي بمدينة قسنطينة عام 1905 كانت أسرته فقيرة ؛ انتقل والده إلى (تبسة) فعاش فيها طفولته وكانت هذه المدينة الصغيرة محافظة على الطابع البدوي وعن الاختلاط مع الفرنسيين ، وفي (تبسة) كان يدرس في الصباح العربية والقرآن ثم يذهب في الساعة الثامنة إلى المدرسة الحكومية الفرنسية ، وفي المرحلة التكميلية كان يتابع دروس العربية والدين ، وكانت المدرسة الفرنسية تشجعه على المطالعة عن طريق إعارة الكتب .

تعرف على تلاميذ ابن باديس من الشباب ، وشعر أنه - وإياهم - على خط فكري واحد ، وكان يقرأ (الشهاب) و (المنتقد) قبلها ولكنه لم يتصل بالشيخ ابن باديس ولا تتلمذ عليه ، لم يتلمذ أو يؤيد تأييداً قوياً الشيخ العربي التبسي ، وكان هناك حاجزاً نفسياً بينه وبين المشايخ ، ويعترف بعد ربع قرن : (حينما تفحصت شعوري حول هذا الموضوع تبين لي أن السبب يكمن في مجموعة من الأحكام الاجتماعية المسبقة ، وفي تنشئة غير كافية في الروح الإسلامي) ، ويتابع الحديث عن الأسباب الاجتماعية : (فأحكامي المسبقة ربما أورثتها طفولتي في عائلة فقيرة في قسنطينة ، زرعت لاشعورياً في نفسي نوعاً من الغيرة والحسد

حيال العائلات الكبيرة التي كان الشيخ العربي ينتمي إلى واحدة منها) ، وكنت أعتقد أنني أقرب إلى الإسلام بالبقاء قريباً من البدوي أكثر من البلدي ، وكان الشيخ العقبي يبدو في ناظري بدوياً ، بينما يبدو الشيخ ابن باديس بلدياً [6] ، فقد تبين لنا أسباب جفائه لزعماء جمعية العلماء وهو شاب بعد الانتهاء من الثانوية ، عمل موظفاً في محكمة (أفلو) ثم استقال ورحل إلى فرنسا عام 1930م في محاولة للانتساب إلى معهد الدراسات الشرقية ، ولكن طلبه رُفض ، انتسب إلى مدرسة اللاسلكي ودرس الكهرباء والميكانيكا ، تخرج مهندساً كهربائياً عام 1935 غادر إلى فرنسا مرة أخرى وبقي حتى عام 1956 .

زار مصر عام 1956 وبقي فيها حتى عام 1963 ، وكان له في مصر تلاميذ وأصدقاء ، وزار خلالها سورية ولبنان ألقى فيها المحاضرات حول موضوع مشكلات الحضارة) ، عاد إلى الجزائر عام 1963 حيث عُين مديراً عاماً للتعليم العالي ، استقال من منصبه عام 1967 وتفرغ للعمل الفكري.

توفي في 1973/10/31 في الجزائر .

مؤلفاته :

له سجل حافل بالإنتاج الفكري، إذا ألف أكثر من ثلاثين كتاباً منها:

- مشكلة الثقافة عام 1956 .
- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة عام 1960.
- الفكرة الأفروآسيوية عام 1956 .
- الكومنولث الإسلامي عام 1960.
- الظاهرة القرآنية عام 1946

- وجهة العالم الإسلامي عام 1954.
- شروط النهضة عام 1948.
- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي عام 1970
- نشر له بعد وفاته كتابان: - دور المسلم ورسالته في القرن العشرين عام 1977 .
- بين الرشاد والتهيه عام 1978،

أسس فكر مالك بن نبي :

أولا - التركيز على القضايا الأساسية في العالم الإسلامي:

إن المشكلات الأساسية التي تواجه العالم الإسلامي من دون الاقتصار على قطر أو إقليم محدّد، هي تلك المشكلات التي ركّز عليها "مالك بن نبي"، وفي مقدمتها مشكلة (الحضارة)، ومشكلة (النهضة)، ومشكلة (الاستعمار)، ومشكلة (التبعية)، ومشكلة (الثقافة والأفكار)، ومشكلة (العلاقات الاجتماعية) و(ميلاد المجتمع المتحضر)، وهي في إطارها العام مشكلات الحضارة، العنوان الذي اختاره "مالك بن نبي" لتأطير كل مؤلفاته وأبحاثه، وذلك انطلاقاً من قاعدة « إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته مالم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، ومالم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها» (مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: 19)

وقليل من المفكرين الإسلاميين الذين ركّزوا على هذه المشكلات بالدرجة والنسبة

التي تعادل تركيز مالك بن نبي "لها.

ثانيا- تجاوز الحساسية الطائفية والمذهبية:

تجاوز "مالك بن نبي" هذه المعضلة الخطيرة والمدمرة، وجعل من فكره مقبولا على مستوى الساحة الإسلامية بكل طوائفها ومذاهبها، وهذا ما أكسبه قابلية حيوية على الانتشار والامتداد في مختلف أوساط الأمة الإسلامية الممتدة من طنجة في الغرب إلى جاكرتا في الشرق، الأمر الذي يكشف لنا عن عمق أصالة ووعي "مالك بن نبي" لقضايا الاستعمار ومشكلات الحضارة في الأمة.

ثالثا - التخصص في العمل الفكري:

إن الذي لا يعرف "مالك بن نبي"، قد يتصور لأول وهلة أنه صاحب اختصاص في علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا أو سوسيولوجيا المعرفة، ولكن لا يخرج اختصاصه عن العلوم الاجتماعية والإنسانية، وهناك من لا يتوقع أن اختصاصه الأكاديمي هو الهندسة الكهربائية، وهذا الاختصاص أفاده كثيرا من زاوية المنهجية وتنظيم الأفكار والتحليل المنطقي الرياضي للمفاهيم والأفكار، ومن هنا صورّه البعض بمفكر عقلاني صارم المنطق، خاضع لمقتضيات المنهجية الرياضية وحدها.

إن الوعي الذي انطلق منه "مالك بن نبي" وشكّل نقطة الارتكاز في العناية بالتخصص الفكري هو رؤيته: « أن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة، وبذلك تكون الحضارة في جوهرها عبارة عن مجموع القيم الثقافية المحققة، وإذن فمصير الإنسان رهن دائما بثقافته» مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 100

ويرى "ابن نبي" أن مشكلة العالم الإسلامي ليس في نقص الأشياء وإنما في نقص الأفكار. ولا شك أن "مالك بن نبي" قد تقدم بدرجة كبيرة في الحقل الفكري، واكتسب الكثير من ميزات هذا الحقل المهم.

ومن دلائل هذه السمة قوله: « العالم الثقافي في العالم الإسلامي اليوم ليس فقط المسرح الذي يدور عليه صراع الفكرة مع الشيء أو مع الوثن، وإنما هو أيضا مسرح المعركة الذي ينبغي أن ينتصر في صراع آخر يفرضه عليه منطق الفعالية، إذ ينبغي على الفكرة الإسلامية لكي تقاوم الأفكار الفعالة والخاصة بمجتمعات القرن العشرين المتحركة، أن تسترد فعاليتها الخاصة بمعنى أن تأخذ مكانها من بين الأفكار التي تصنع التاريخ» (مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص: 142).

وهناك أكثر من عامل ساهم في تأصيل الحالة الديناميكية في فكر "مالك بن نبي"، منها تركيزه على مشكلات الحضارة، ومعايشة للاستعمار، ومقارنته بين مجتمعات العالم الإسلامي المتخلفة ومجتمعات العالم الغربي المتقدمة، وكيفية تجاوز هذه الفجوة التي تتسع باطراد يوما بعد يوم.

خامسا - غلبة جانب البناء على الهدم:

ما يميز فكر "مالك بن نبي" من هذه الناحية أنه ركز على جوانب البناء أكثر من جوانب الهدم، وهذا ما أكسبه نقطة تميز لأننا نحتاج في مثل هذه الظروف إلى فكر البناء أكثر من فكر الهدم.

وعن هذه القضية كتب ابن نبي وهو يتحدث عن موضوع النهضة، يقول: « وهكذا حين نتحدث عن النهضة نحتاج إلى أن نتصورها من ناحيتين:

1- تلك التي تتصل بالماضي، أي بخلاصة التدهور وتشبعها في الأنفس وفي الأشياء.

2- تلك التي تتصل بخمائر المصير وجذور المستقبل.

في كل كتاب من كتب مالك بن نبي كان هناك جزءا من الجواب، فقد وجد أن القابلية للاستعمار هي السبب الرئيس في تخلف المسلمين، حيث ينفرد بن نبي بهذا

المصطلح "القابلية للاستعمار" الذي استعمله أول مرة عام 1948 في كتابه "شروط النهضة". ويعتقد بن نبي أن الظروف التاريخية والاجتماعية والنفسية لشعب تجعله يقبل الاستعمار.

كان لمالك بن نبي رؤية في الاقتصاد الإسلامي لتجنب الأزمات الاقتصادية، وهي الاعتماد على الاقتصاد الحقيقي (الإنتاج)، وعالج بن نبي الاقتصاد الإسلامي بوصفه سلوكًا للمسلم، حيث يصبح السلوك الرشيد قوة لهذا الاقتصاد وذا تأثير على مراكز القوى السياسية في العالم، واعتمدت أفكار بن نبي الاقتصادية على الفقه الإسلامي وحرية الاجتهاد، وفق الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتقنية، ويؤكد ضرورة التوازن بين الاستهلاك والموارد، لافتًا إلى أن أي خلل في ذلك التوازن سيؤدي إلى أزمة، ويعد بن نبي أول من تحدث عن "حرب العملات" أو "حرب الصرف"، وقال إن ارتباط اقتصاد دولة بعملة معينة يرهن اقتصادها بهذه العملة.

وبالإضافة إلى نظرياته الفكرية الأخرى و التي ذكرنا منها نظرية "القابلية للاستعمار"، هناك نظرية "طغيان الأشياء"، ونظرية "طغيان الأشخاص"؛ فهو يرى أن مقولة إن "تكديس الأشياء هو الحضارة"، فكرة خاطئة؛ لأن الحضارة هي تصنيع الأشياء وإنتاجها، لا استيرادها وتكديسها، أما في طغيان الأشخاص، فيرى أن المسلمين ينتظرون ذلك البطل الذي سيأتي ويأخذ بأيديهم وينصرهم على أعدائهم، فهم دائمًا في انتظار "صلاح الدين"، لكي يأخذ بأيديهم.

لقد كان مالك بن نبي "صرخة في غير وقتها"، خصوصًا في بناء الفكر الإسلامي الحديث ودراسة المشكلات الحضارية عموماً، سواء من حيث المواضيع التي تناولها أو من حيث المناهج التي اعتمدها في ذلك، فقد تعرض لظلم وتجاهل من قبل نخب الأمة، ولعل لهذا التجاهل أسباباً منها على سبيل المثال: أن مالك بن نبي كتب فكره باللغة الفرنسية، وراح ضحية استقطاب حاد صاحب تلك الفترة، فاليساريون صنفوه على أنه ينتمي للتيار

الإسلامي، والإسلاميون كانوا يرون فيه مفكرًا يساريًا أو ليبراليًا، وحقيقة مالك بن نبي أنه كان مفكر أمة بامتياز.

مالك بن نبي في وسط هذين التيارين المتصارعين اللذين عايشهما، وجه نقدا لكليهما:

النقد الأول: والذي كان موجها للتغريبين العرب، وهو أنه من غير المعقول أن يكون سبب تخلف المسلمين هو الدين، لأن هذا الدين صنع أعظم حضارة في التاريخ الإنساني وهي الحضارة الإسلامية، والعالم الغربي وحضارته والتي فتن بها التغريبون هي في الأساس تدين للحضارة الإسلامية بالكثير من الأشياء، هاته الأخيرة هي التي مدتها بأسباب التطور ومشعل الحضارة تسلمه الغرب من أيدي علماء المسلمين، لذلك هذا وحده ينقد كل مفهوم فلسفة التغريبين العرب، ولأن القيم الإسلامية في ذاتها هي قيم حضارية .

النقد الثاني والذي كان موجها للأصوليين العرب، كان بكل بساطة، أنه إذا كان سبب تخلف العرب والمسلمين هو الاستعمار والمؤامرة الغربية، فكان يجب أن تكون دولة اليمن من أكثر الدول العربية تطورا وازدهارا، لأن اليمن تقريبا هي الدولة العربية الوحيدة التي لم تشهد استعمارا غربيا، بل العكس اليمن هي من الدول العربية تخلفا، لذلك هذا النقد الموجه من طرف مالك بن نبي للأصوليين يزرع الشك في فلسفة الأصوليين .

مالك بن نبي يرى أن الاستعمار هو نتيجة وليس سبب للتخلف ، إذا فالتخلف بالنسبة لمالك بن نبي هو نتيجة لمرحلة طويلة من الانهيار في عالم الأفكار والثقافة، وهذه المرحلة الطويلة من التخلف، يسميها مالك بن نبي مرحلة ما بعد الموحدين.

رغم معرفة مالك بن نبي الكبيرة الدقيقة بالفكر الغربي، وتأثره به في كثير من الأمور إلا أن أمله في التغيير "بقي معلقًا في الأصالة الإسلامية، وبالرجوع إلى المنبع الأساسي للمسلمين ،فالعالم الإسلامي اصبح غير قادر على الوصول إلى بر الأمان خارج

حدوده ، بل لا يمكنه في كل حال أن يلتزمه في العالم الغربي الذي اقتربت قيامته، ولكن عليه في ذات الوقت ألا يقطع علاقته بحضارة تمثل إحدى التجارب الإنسانية الكبرى، بل أن ينظم العلاقة معها.

قائمة المصادر و المراجع

- مالك بن نبي ،مشكلة الثقافة ،دارالفكر المعاصر ،بيروت ،الطبعة 4 ، 1994
- مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ،دار الفكر ، دمشق،سنة 1986
- مالك بن نبي ،مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ،ترجمة أحمد شعبو ،دار الفكر ، بيروت ، طبعة 1 ، 1988
- مالك بن نبي ، تأملات ،دار الفكر ، بيروت ،الطبعة 1 1989
- مالك بن نبي ، بين الرشاد و التيه ، دار الفكر ، بيروت ،الطبعة 1، 1978
- مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ترجمة محمود محمد شاكر ،دار الفكر ، بيروت ،الطبعة 4، 1987
- محمد سعيد مولاي ،شاهد القرن مسار حياة ومعالم وفكر ،